قراءة فى كتاب أحد أعضاء الحملة الفرنسية

يحلو لبعض الناس أن يتخذ منهج الغفلة فى التعامل مع القضايا المهمة تحت مظلة حسن الظن، ومن تلك القضايا توصيف الحملة الفرنسية التى يغفلون عن كونها من أكبر الكوارث التى أصابت مصر فى العصر الحديث إن لم تكن هى أكبرها جميعًا.. ويجهل كثير من أولئك الغافلين الحقائق التى تنطبق عليها عبارة «وشهد شاهد من أهلها» والتى ليست مجالاً للشك، ولا تحتمل أى تحامل على الحملة وأغراضها وأهدافها وتصرفاتها المشينة. ففى كتاب واحد من كتب أحد أعضاء الحملة الفرنسية، وهو فيفان دينون Vivant Denon، نسوق العشرات من الأمثلة التى تدل على الخزى والعار لهذه الحملة المشئومة، ونترك المئات غيرها، ونترك مئات الكتب غير كتاب فيفان هذا، والتى تصف بأقلامهم مدى البشاعة والحيوانية – مع أسفنا لجنس الحيوان – التى وصمت بها الحملة حتى يعد وصفها بأنها معبر للتنوير والحضارة من قبيل الخيانة الوطنية والجهل الفادح لحقائق التاريخ..

كان فيفان دينوى (١٧٤٧ – ١٨٢٥) من أهم أعضاء الحملة الفرنسية على مصر فى فريق «العلماء»... وقد عمل بالسلك الدبلوماسى ومارس الكتابة والرسم، وتم تعيينه أيام نابليون مديراً للفنون «الجميلة، وحمل لقب «بارون الامبراطورية». أى أنه كان من المقربين، الشديدى الحماس لهذه الرحلة. وقد أبحر فى الرابع عشر من شهر مايو ١٧٩٨ على متن الفرقاطة «لا جنون» التى كانت تتصدر الحملة...

ويصف الأديب أناتول فرانس Anatole France فى كتابة عن الحياة الأدبية قائلاً: «كان يعلق كراسة الرسم بحمالة، والنظارة المعظمة على جنبه، وأقلام الرسم فى يده، وينطلق بجواده ليسبق الخطوط الأمامية من الكتيبة حتى يتمكن من الرسم إلى

أن تنضم الفرقة إليه. وكان يخط الاسكتشات تحت نيران العدو بنفس الثبات الذى كان سيعتريه إن كان جالسًا إلى مكتبه أو مائدته»!

وأول ما يلفت النظر فى هذا الوصف كلمة «العدو» التى تشير إلى المصريين أو الأتراك.

واللافت للنظر أيضًا أن أناتول فرانس ليس الشخص الوحيد الذى استخدم هذه العبارة، وإنما نراها ترد عبر صفحات كتاب فيفان دينون بأسرها، وعبر صفحات كل من تحدث عن هذه الحملة المنكوبة..

ويمثل كتابه «**رحلة فى مصر العليا والسفلى**» خطوة حاسمة فى معرفة الآثار المصرية القديمة التى رسمها.. أما اليوميات المرافقة لهذه الرسومات، وإن كانت خليطًا من وصف الآثار والطبيعة، إلا أنها تزخر بوصف المعارك والمجازر التى واكبها، ونورد منها هذه النماذج الكاشفة لحقيقة الحملة:

- باغتنا مخيم بعض الأعراب واستولى جنودنا على كل شىء: الخيام، والماشية، والمؤن..
- باغتناهم بعد فوّة واثخّناهم بالجراح ففروا إلى النهر وأطلقنا عليهم الرصاص جميعًا...
- لقد تم نهب القرية عن آخرها طوال اليوم، وما أن أتى الليل حتى أجهزت عليها النيران التى أشعلناها... وقامت ألسنة اللهب وطلقات المدافع طوال الليل بترويع المنطقة المحيطة على مدى عشرة فراسخ وبإعلامهم أن انتقامنا تام ورهيب...
- ما أن أتى الليل حتى حرقنا المنازل المجاورة واستولينا على المسجد وفصلنا الأعداء على النيل ثم انهلنا عليهم لأخذ الذخيرة.
- لم نقتل سوى تسعة من المتمردين ولم نحرق سوى ربع القرية.
- لقد سمحت لنا الظروف، وعن قرب شديد، بملاحظة البلد الذى كان علينا تغيير عاداته وتقاليده.

● لقد أرجأت متعة رسم النساء المصريات إلى الوقت الذى يتمكن فيه تأثيرنا فى عادات الشرق من خلع الحجاب الذى يتحجبن به.

● عبرنا السالمية حيث تمكنا من تأمل الأهوال التى أحدثها انتقامنا... وهى نفس المنطقة التى قضينا منذ أيام مضت على معظم سكانها..

● سنهور المدينة لم يعد بها سوى أنقاض وخرائب..

● حاصرنا البرج وهاجمناهم بنظام أكثر من المرة السابقة، وبعد قتلهم بدأنا فى إشعال النيران فى المنازل...

● ما أن استولينا على حقل المعركة حتى شرعنا فى حرق كل ما يمكنه الاشتعال وقام الجنود بالاستيلاء على قرابة مائتين حمار وحملوا عليها ما يقرب من ألفين أو ثلاثة آلاف دجاجة وحمامة، كما استولوا على ثمانمائة من الخراف...

● كنا نهدم لنسحق كل من كان يقترب بما معهم من أدوات ليفتحوا الأبواب التى تختبىء خلفها، وأصبح السلم الذى يمكنهم الوصول إليها عن طريقه كآلة حرب لدفن كل أعدائنا دفعة واحدة وكنا نستمتع بأعمالنا هذه عندما أتت المدفعية الثقيلة لتنقذنا. ولم نتمكن من هدم المسجد لكنه أصبح النقطة الوحيدة لتجمع أعدائنا..

● أجهزنا على قرية «الكان» وأبدنا أهاليها ثم أحرقنا القرية.

● عاد الجنرال دوما بعد مطاردة العرب وقام بمجزرة كبرى ضد المتمردين، ثم قطع رأس زعيمهم بينما كان يحث مواطنيه على مواصلة القتال...

● ترددنا فى هدم المسجد إلا أنه كان يأوى مئات من الأعداء...

● كنا نعسكر أمام المدن والقرى ونقتات على نفقتهم حتى نتسلم منهم ما يجب عليهم دفعه من جياد وأبقار...

● بعد أن قام سلاح الفرسان بالكتيبة بقتل المئات اختفى الباقون هربًا، ولولا جنوح الليل وظلامه لفرمناهم ولهدمنا مساكنهم كالمعتاد...

● كنت أفرح بالقرى الخاوية لكى لا أسمع صراخ الأهالى الذين كنا مجبرين على نهبهم...

● وصلنا وقمنا بنهب المحال... ورحلنا فى ظلام الليل لنتفادى نظرات اللوم والإدانة المرتسمة على وجوه الأهالى...

● ظل يحارب وكأنه لا يمكنه أن يتوقف عن الحياة، وقام بجرح اثنين من جنودنا رغم أنهما كان يجهزان عليه بسنج بنادقهما.

● كان علينا تجويع البلد حتى الموت لنجبر العدو على أن يبقى بعيداً.

● لقد رفض أهالى جزيرة فيلة استقبالنا، وأعزينا ذلك إلى الخوف والرهبة التى كنا نشيعها... ولقد تغير الوضع عندما حاصرناهم بالمدافع الرشاشة وحل الهلع محل الشجاعة وقفز العديد منهم إلى النيل هرباً، بل رأينا أمهات يقمن بإغراق أطفالهن الذين لم يستطعن حملهم وتشويه بناتهن لحمايتهن من اغتصاب الغزاة... وفى الصباح كنا نتناوب عليهن...

● تم إرسال الجنرال دافو Davout بسلاح الفرسان إلى بنى عاد وكان الوضع يتطلب هدم ذلك البركان الذى يهددنا بلا هوادة، وما هى إلا لحظات حتى قام الجنود بنهب القرية التى سرعان ما اختفت. وكان من ضمن الغنائم العديد من النساء والبنات والجوارى... وتوالينا عليهن...

● الثورة الشعبية التى قامت يوم ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ والتى ثار فيها الشعب تم سحقها فى يومين بواسطة المدافع وأسفرت عن مقتل أكثر من ثلاثة آلاف من المصريين...

● ما أبغض بشاعة الحرب ولياليها الكالحة حيث يجب جمع الموتى وترك جرحى الأعداء يموتون ببطء أو الإجهاز عليهم قبل طلوع النهار، وخاصة تلك الحملات التعسفية والمجازر التى لا داعى ولا مبرر لها خاصة ضد المدنيين والريفيين...

● هجمات المدنيين العزّل تماماً كانت تقابل بانتقامات عمياء من قبل رجال ديزيه Desaix ومنها هدم المنازل والإعدام الجماعي...

● قام الجنرال دافو بقتل ألفين من المواطنين العزّل بتهمة إرسالهما مرشدين إلى المماليك! كما تم حرق العديد من القرى...

● كلما تعقدت الأمور بالنسبة للفرنسيين ازدادت هجماتهم عنفاً وشراسة، الأمر الذى كان يدفع النسوة والأطفال والشيوخ إلى محاولة الهرب من جحيم النيران المشتعلة فى بيوتهم وهدم مخازن الغلال وذبح الماشية وتحطيم آلاتهم الزراعية وإعدام الرهائن بلا أدنى سبب وعمليات الاغتصاب التى كان يقوم بها الجنود الفرنسيون بلا هوادة...

● لقد تجمع قرابة ستة أو سبعة آلاف من الفلاحين من القرى المجاورة للأقصر لمهاجمتنا، إلا أن سلاح الفرسان قد قتل منهم ألفاً ومائتين دفعة واحدة، مما دفعهم إلى الفرار...

● نحن الذين نزعم العدل كنا نقترف يومياً وبلا مبرر بشاعات لا يمكن وصفها ذلك لأنه من الصعب تمييز عدونا بناء على اللون والملبس، مما دعانا إلى قتل العديد من الفلاحين الأبرياء يومياً...

● الإسلام دين تعتيم يصاحبه الاستبداد أو الفوضى... الإسلام دين مشئوم حيث إن المبادىء الفاسدة إضافة إلى العقيدة تحصر الإنسان بين البطولة والفسوق...

● إن عبارة «الإسلام والعرب» تمثل أسوأ خليط يمكن تصوره لأن دين محمد عبارة عن بضع صفات لا يمكنها أن تكفى أمام الجهل الرهيب للعرب... وعلى الرغم من تبجيلهم الأعمى للقرآن وطاعتهم المطلقة لكل ما قاله نبيهم، ورغم اللعنة التى تلاحق كل من يبتعد عن ذلك فهم لم يفلحوا فى الابتعاد عن الهرطقة ولا عن سحر الوثنية[1]...

---

(١) لن نعلق على هذا الهراء الكاشف لمعتقداتهم وأفكارهم وموقفهم المتدنى من الإسلام والعرب.

● يا لهول ذلك الفارق بين الشعارات الثورية البراقة التى يوجهونها للشعب المصرى لتحريره من نير المماليك وبين نفس الممارسات العدوانية التى يمارسونها عليه!..

وإن كان فيفان دينون مع مرور الوقت ومعايشته بشاعة ما يقترفون من مجازر قد بدأ يتسأل بمراره «بأى حق نقوم بهذا الإجراء أو ذلك»؟! فلا نرى أوقع مما نختتم به هذه المقتطفات إلا نفس تساؤل فيفان دينون بعد أن اهتزت أعماقه الإنسانية من هول ما عايشه:

«كيف يمكننا إقناع مثل هؤلاء الرجال أو قهرهم على الصمت؟! ألن يلوموننا دائمًا بأنا أثرينا مقابر أجدادهم بحصاد رهيب؟» ويالها من صيغة أدبية مهذبة ليعبر بها عما تم اقترافه من مجازر وإراقة دماء بغير حق، وعدوان قائم على الغش والخداع والخيانة والكذب... فهل يمكن لعاقل حتى لو كان عميلاً من عملائهم أو ذنبًا من أذنابهم أن يدعو للإحتفال بهذا البلاء؟!

أليس من الأكرم – بدلاً من تحريف التاريخ وتزييفه وإخفاء الحقائق لصالح الغرب واتجاهات الفرانكوفونية وحروب التسلل البطيء – أن نطالب بمحاكمة جلادى هذه الحملة كمجرمى حرب ولو غيابياً؟ أليس من الأحق لدماء شهدائنا المطالبة بإعادة كل ما سرقوه من تراثنا وآثارنا التى تمتلىء بها متاحفهم ومكاتبهم وهى «غنائم ضخمة حملوها تحت حماية الحكومة والجيش» كما يقول فيفان دينون فى كتابه «**رحلة فى مصر العليا والسفلى**»، وأن نجاهد لننفض عن كاهلنا هذه التبعية الاستعمارية المخزية؟!.

* * *

من وثائق ما قبل الحملة

لا نتناول شذرات من وثائق ما قبل الحملة الفرنسية على مصر إلا لنوضح أن فكرة الغزو لم تكن عشوائية أو من بنات الساعة لأى فرد كان، وإنما هى بمثابة حل أو مخرج لأزمات فرنسا السياسية والاقتصادية والتجارية، تمت دراسته بتأن، وقد ساهمت العديد من الآراء والسلطات فى تكوينه وتنفيذه...

فإذا ما رجعنا عدة عقود فقط إلى ما قبل الحملة، ولا نقول إلى قرن بأكمله، أى لمجرد الأصداء القريبة منها، لوجدنا أنه منذ عام ١٧٦٦ وفرنسا حانقة من تدخل امبراطورة روسيا، كاترين الثانية، فى بولندا، وكانت تسعى لشن حرب ضدها فى تركيا، فقام الدوق شوازول Choiseul ، وزير خارجية لويس الخامس عشر بتعيين الفارس سان–بريبست Saint-Priest سفيراً لفرنسا فى القسطنطينية فى ١٧٦٨/٧/١٧ لدراسة الوضع الراهن للامبراطورية العثمانية والثورات المحتملة أو تلك التى تتهددها، وإمكانية تصفية الوجود الشرقى، والعمل على انهيار هذه الامبراطورية أو كيفية الاستفادة من هذا الانهيار إذا تعذر منعه! [وارد فى: « **المشروع الفرنسى لغزو مصر أيام حكم لويس السادس عشر** » ص٢].

وفى عام ١٧٦٩ أعلنت تركيا الحرب على روسيا وتم لفرنسا ما سعت إليه لتكون الوسيط الخارجى فى حل هذا النزاع... وتم إرسال البارون فرنسوا دى طوط François de Tott كمستشار حربى للسلطان مصطفى الثالث. والنص الصريح ليس بحاجة إلى تفسير فالاستفادة من سقوط امبراطورية يعنى « الحصول على جزء من أراضيها الفعلية أو ممتلكاتها البعيدة » على حد قول فرنسوا شارل–رو كاتب البحث المذكور سالفاً. والميراث المعنى هنا هو أن ترث فرنسا الأتراك فى الشرق. ونطالع فى التعليمات الصادرة لسان–بريبست فى ١٧٦٨/٧/١٧ إضافة إلى وزير الخارجية

الفرنسى، ما يشير إلى ذلك الميراث قائلاً: «إن مصر توجد فيما يشبه حالة استقلال متميز عن الباب العالى، وعلينا أن نصوب نظراتنا إلى هناك... وأن يأخذ الروس أوكرانيا وتستولى فرنسا على مصر»...

ومن ناحية أخرى، كان الدوق دى لوزون Louzun (ابن شقيق دى شوازول) يحاول اقناع الكونت مونموران Montmorin وزير الخارجية آنذاك، بالعمل على تبنى سياسة تحول دون استقرار انجلترا فى مصر، وأن يعمل على استتباب السيطرة الفرنسية. ومن بين التقارير والخطابات المتتالية التى أرسلها نطالع عبارة تقول: «إن مصر كثيراً ما لفتت انتباه الدوق دى شوازول، والاستحواذ على هذا البلد الخصيب الرائع كان بمثابة مشروعه المفضل وهيامه السياسى الذى كثيراً ما تَصدّر أحلامه» [ص٩ المرجع السابق].

وفى ١٣/٧/١٧٩٧، كان القس دى بريجور De Perigord ، الذى اعتلى درجات السلطة ليصبح اسمه تاليران Talleyrand ، المعروف بالوزير الداهية، كان يناشد أعضاء المعهد الفرنسى ويحاول إقناعهم «بالمزايا العديدة التى تتيحها الظروف لاحتلال مصر، وهى بمثابة الخطوط الأولى لخطته الشخصية للحملة الفرنسية على مصر، مضيفاً تلك العبارات التى اشتهرت فى التاريخ:

«إن السيد الدوق دى شوازول، أحد أكثر رجال عصرنا ادراكاً للمستقبل، كان يتنبأ منذ عام ١٧٦٩ بانفصال أمريكا عن انجلترا، ويخشى تقسيم بولندا، وكان يبحث منذ تلك الفترة عن الإعداد لمفاوضات التنازل لفرنسا عن مصر... لتكون فرنسا مستعدة عن طريق نفس المنتجات وبتجارة أكثر اتساعاً تعويض المستعمرات الأمريكية عندما تفلت من أيدينا».

أى أن خلاصة الموقف، عند تفكك الامبراطورية العثمانية التى تحيط بها أطماع الدول المجاورة لها والتى أعدت لهذا التفكك بدهاء ودأب كما يوضحه شارل-رو: «إذا ما تم التفكك فإنه سيحرم لعبة فرنسا من الكارت الذى ما زالت سياستها

تستخدمه بفائدة رابحة، كما سيجعلها تفقد الموقف المميّز الذى تحتله فى تجارة المشرق. ولهذين السببين كان لابد لها من تعويض ضرورى، فى شكل أرض تعوضها التوسعات المحتملة لغيرها وأن يؤكد وضعها الجغرافى للتجارة الفرنسية احتمالات نشاط أوسع وتطوراً أعم. وفى اختيار الأراضى المتاحة، كانت أكثر الميول الشخصية والرسمية تتجه إلى مصر. وكان لاختيار مصر العديد من الأسباب » [ص ١٢ المرجع السابق].

وبعد تناول ميزة الموقع السياسى لمصر بالنسبة للباب العالى وتدهور الأوضاع به، راح فرنسوا شارل-رو يتناول جانب الثروات فى مصر قائلاً: « ثم إن هناك ثروات مصر، ومواردها الزراعية، وأهمية تجارتها، وموقعها الجغرافى، والتسهيلات التى تقدمها للتجارة مع الهند عن طريق البحر الأحمر. إن مجمل هذه الظروف الفريدة تفتح باب استغلالها بصورة شديدة الفائدة، بمزايا لا تقل أهمية، تحت إدارة رشيدة، مما يضفى على مصر قيمة لا مثيل لها، وهذه القيمة تجعلها شديدة الإغراء بالنسبة لفرنسا. وبما أن هذه الميزات تجعلها مغرية فى نظر بلدان أخرى كانجلترا والنمسا بل وحتى روسيا، فإن ميزة الاستحواذ عليها يضاف إليها ميزة منع منافسينا من الاستقرار فيها ».

« ثم هناك التراث، وذكرى الحروب الصليبية لسان لويس، والعلاقات الاقتصادية والسياسية لفرنسا مع مصر، وأهمية تجارة مرسيليا مع كل من الاسكندرية والقاهرة، والوضع القوى والمميز حقيقة الذى حصل عليه تجارنا أيام لويس الرابع عشر، وما زالوا يحتفظون به، والأخطار الناجمة عن الفوضى المحلية التى تتهدد هذا الوضع القديم لتجارتنا، وأخيراً هناك سمعة مصر لدى الآخرين، غير التجار وأصحاب السفن، تلك السمعة التى كونها الرحالة عنها، وعظمة ماضيها وآثارها القديمة، وكلها عوامل تساهم فى شعبية وأهمية هذا المكان. وكل ما عددناه هنا لا يستهان به » [ص ١٣].

وفى المذكرة التمهيدية الموجزة التى كتبها سان-ديدييه Didier نائب وزارة البحرية إلى رئيسه السيد دى بوان De Boynes نطالع:

« وفقاً لكل الإيضاحات التى استطعت جمعها، ووفقاً لتجارب كافة الأشخاص الذين شاخوا فى إدارة شئون الشرق والذين لديهم بالتالى دراية أكثر اتساعاً حول مختلف مقاطعات هذه الامبراطورية، ووفقاً لتجربتى الشخصية فإننى أعتقد أن مصر تمثل بالنسبة لنا المكان الوحيد الذى يمكن أن نعده لأغراضنا بصورة رابحة وبسهولة وبضمان مؤكد . . . ».

« ومن هذا المنطق، فإننى اقترح غزو مصر كخطة محتملة وأنها يجب فى الوقت الراهن أن تثتأثر باهتمام الحكومة كلية، لكى نناقش المزايا والعقبات وأن نقوم بإعداد الوسائل إذا ما تم الاعتراف بسهولة ولياقة هذه العملية ».

« ولم تتح لى اليوم فرصة الدخول فى التفاصيل حول مزايا غزو مصر الحالية. إن السيد الرئيس لم يطلب سوى هذا العرض البسيط الموجز لوجهة نظرى حول الجانب الذى يتعيّن على فرنسا أن تتخذه فى حالة ما إذا اندلعت ثورة فى الامبراطورية العثمانية. وإذا ما راقت وجهة نظرى هذه لسيادته سأتناول المسألة بمزيد من الإسهاب وسأكتفى بأن أوضح له بصفة عامة أن غزو مصر يبدو لى أنه الوسيلة الأكيدة لإخفاق أو على الأقل ليوازن النظرات الطموحة لروسيا وانجلترا، وأن يجعل فرنسا سيدة التجارة فى الهند دون أية مقاومة وأن تأتى لآل بوربون بامبراطورية البحر الأبيض المتوسط وأن تجلب لها أخيراً مستعمرة للسكر والنيلة مستقلة عن أمريكا وعن المصير الذى يمكن للمستقبل أن يعدّه لأوربا نسبياً فى العالم الجديد. سأضيف فقط أن الاستيلاء على مصر لا يمثل صعوبات كبيرة إن لم يكن علينا إلا هزيمة المماليك والأتراك الموجودين فيها. غير أن أهم ما يجب أن نتوخاه قبل عملية الغزو هو كيفية الاحتفاظ بهذا البلد حتى لا نتعرض فى أى لحظة كانت لمجاذفة ضياع ثمرة جهودنا ونفقاتنا » [ص ١٥ – ١٦ المرجع السابق].

بينما كتب البارون دى طوط De Tott عام ١٧٧٦، مذكرة إلى وزيرى

الخارجية والبحرية الفرنسية بعنوان: «فحص الحالة الطبيعية والسياسية للامبراطورية العثمانية ووجهات النظر التى تحددها بالتالى لفرنسا»، وكان دى طوط هدا يعمل مستشاراً حربياً للحكومات التركية كما رأينا فى مطلع هذا الجزء من البحث.

ويبدأ هذا التقرير بعرض الأوضاع فى الامبراطورية العثمانية التى كان على دراية واسعة بأمورها السياسية والعسكرية، ثم ينهيه قائلاً: «وبناء عليه، فلا يوجد أمام فرنسا سوى خيارين: إما ضمان الامبراطورية العثمانية وحمايتها من الانهيار، وإما استغلال فرصة هذا الانهيار».

وبعد استعراض الحالة التجارية راح يضيف قائلاً: «إن الاستقرار فى مصر يجمع بين اهتمامات جلالته وسياسته. ويكفى إلقاء نظرة على خريطة مصر لنلحظ فى وضعها القريب من أوربا وآسيا وأفريقيا والهند أنها بمثابة مستودع لتجارة عالمية. فهى تمتاز بمناخ معتدل وأرض محظوظة يرويها أجمل الأنهار، وتعطى أكثر المحاصيل تنوعاً وأكثرها وفرة وقيمة، فهى تقع فى الزاوية الشرقية لأفريقيا، وقريبة من أثيوبيا، وموانيها فى البحر الأبيض المتوسط وفى البحر الأحمر تجعلها تلامس تقريباً أوربا وآسيا والهند عن طريق باب المندب.

«وفرنسا هى البلد الوحيد بين القوى العظمى التى يمكنها تكوين وتغذية والاحتفاظ بمنشأة للاستقرار بلا أى اعتراضات، وستكون منبع أكبر الثروات بربط البحر الأحمر بفرع النيل القريب منه عن طريق قناة صالحة للملاحة. لكن دون التوقف عند موضوع بمثل هذه القيمة الكبرى، فإن المزايا الواضحة للوضع الراهن لمصر تكفى لكل تجارة فرنسا بأسرها، والطرق الممهدة من القاهرة الكبرى إلى السويس ستكفى لتسهيل عملية استغلال طريق الهند. كما سنلاحظ أيضاً فى هذه المنشأة أن قربها منا يضعها تحت أعين جلالته وأعين وزرائه، كما أنها لا تؤدى إلى ما يشبه المنفى لرعايا جلالته الذين سيُنقلون إليها، ولا تتسبب فى تقسيم القوات العسكرية للدولة من أجل حمايتها. علينا أن نضيف إلى هذا الاعتبار الأساسى أن فرض ضرائب معتدلة فى

بلد يمثل هذا الثراء ويمثل هذا التعداد سيكفى للإنفاق على الجيش الذى سنقوم بتكوينه فيها وللإنفاق على الأسطول الموجود بالفعل والممثل فى البوارج القابعة فى الاسكندرية».

ويختتم البارون دى طوط تقريره بهذه العبارة الكاشفة لحقيقة نظرة المستعمر الصلف: «إن بلد بلا حماية، تحت سيطرة قوى شبه منعدمة، وهو عبارة عن أمة تجارية وشعب رخو، يخضع دائماً لأى عبد لديه إرادة ليحكمه ويأمره، فكل ذلك لا يمثل بالنسبة لنا عقبات علينا أن نجتازها»!!.

ويوضح المؤرخ فرنسوا شارل-رو أن كل ما كانت فرنسا تحتاجه آنذاك هو البحث عن «ذريعة لقيام الحملة» [ص٢١] وكانت الذريعة التى تلفّعت بها فرنسا لشن حملتها الاستعمارية الاستيطانية السافرة هى: «الإهانات التى ألحقها البكوات المماليك بالتجار والباعة الفرنسيين»! وهو ما ينهى به البارون دى طوط تقريره قائلاً:

«إن تصحيح الإهانات التى عانى منها التجار طيلة الوقت ستكون الحجة الصائبة للعدوان الذى سيعرف سفير جلالته لدى الباب العالى كيف يبرره نظراً لعدم استطاعة السلطان البت فيها».

وذلك على الرغم من أن نفس هؤلاء التجار الذين تم اتخاذهم ذريعة لغزو مصر واحتلالها، كانوا فى واقع الأمر يتمتعون بوضع قوى ومميز حقيقة منذ أيام لويس الرابع عشر، بل وما زالوا يحتفظون به، كما تقول وثائقهم، حتى بدأت الحملة...

* * *

«ملاحظات حول مصر»
التقرير السرى الذى قدمه سان-ديدييه عام ١٧٧٦ لاحتلال مصر ! . .

إن فكرة غزو مصر واحتلالها ونهب ثرواتها ترددت أصداؤها طويلاً فى دهاليز الحكومات الفرنسية المتتالية منذ بدأت أطماعها الاستعمارية فى الانتشار، إلا أنها ازدادت بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر... وما أكثر التقارير السرية التى تم تداولها خفية فى وزارة الخارجية أو فى وزارة البحرية، تقارير كتبها رجال السلك الدبلوماسى الفرنسى العاملين فى العالم العربى والإسلامى، خاصة فى كل من تركيا ومصر...

ومن أهم تلك التقارير السرية، ذلك التقرير الذى قدمه سان-ديدييه فى شهر أغسطس عام ١٧٧٦ إلى رئيس وزارة الحربية الذى كان هو واحداً من كبار موظفيها... إنه تقرير يكشف بوضوح مقزز عن الأهداف السياسية والعسكرية والاقتصادية لتلك الحملة المشئومة على مصر كما يكشف عن خبايا تلك النفوس المريضة القائمة على الغش والخداع والاستغلال...

ويتكون التقرير أصلاً من مقدمة وثمانية بنود، تكشف عما استطاع سان-ديدييه أن يجمعه من معلومات حول مصر فى ذلك العصر، من حيث موقعها الجغرافى، وشعبها بعاداته وتقاليده، والثورات المتتالية التى شهدتها مصر آنذاك، وحول حكومتها ومختلف منتجات البلد وصناعاته وتجارته... كما يكشف عن آراء كاتبه وتحليلاته السياسية لتبرير الحملة على مصر وغزوها والاستقرار بها للتمكن من نهبها وتعويض ضياع المستعمرات الأخرى...

والجزء الذى نقوم بترجمته فيما يلى منشور فى بحث طويل بعنوان: «المشروع الفرنسى لغزو مصر أيام حكم الملك لويس السادس عشر» بقلم المؤرخ فرنسوا

شارل–رو، وهو منشور فى المجلد الرابع عشر من مصبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، وهو الاسم العصرى لتلك المؤسسة التى أتى بها نابليون مع حملته تحت اسم « لجنة العلوم والفنون »!.. إلا أن المؤرخ لم يورد من ذلك التقرير السرى سوى المقدمة وآخر ثلاثة بنود، وهى على التوالى: « فحص المزايا التى سنحصل عليها من غزو مصر »، « وهل من الممكن غزو مصر؟ »، و« غزو مصر هل هو ضرورى أم هل سيصبح ضرورياً؟ ».

وتتضمن مقدمة التقرير العرض التالى للأحوال السياسية:

« إن النكبات التى تعرض لها الأتراك أثناء الحرب الأخيرة مع الروس، وشروط السلم المخزية التى تمهد لانهيار امبراطوريتهم وإتساع الامبراطورية الروسية، والخوف من ثورة قريبة المدى والتى قد تطيح بسلطان القسطنطينية فى آسيا، قد دفعتنى إلى التنبؤ بالضربة القاضية التى يمكن لهذا الحدث أن يوقعه بالتجارة الفرنسية فى بلاد المشرق. وبعد التفكير ملياً حول الإجراءات التى يجب أن يتم اتخاذها فى هذا الوقت ليتم تزويد فرنسا بمعادلٍ يمكنه أن يعوضها عن الخسارة التى تتهددها، فقد لاح لى ذلك فى غزو مصر. ولم أخف عن نفسى المصاعب التى يمكنها اعتراض ذلك، إلا أننى رأيت أنه يمكن اجتيازها...

« وبعرض كل ما يتعلق بتجارة المشرق على سيدنا، والتى تسلمت تفاصيلها بناء على أوامره، فقد رأيت أن أعرض عليه هذا المشروع بكل مزاياه، دون أن أخفى عنه العقبات التى يمكن للظروف الحالية أن تأتى بها. ولم أقدم له ذلك إلا كمورد للمستقبل، ووسيلة لإخفاق التطلعات الطموحة لروسيا، وللقوى الأخرى الغيورة من سيادة تجارتنا فى البحر الأبيض المتوسط.

« وبعد عدة أشهر عاد البارون دى طوط، المعروف بكفاءته وبالخدمات التى أسداها أثناء إقامته الطويلة بتركيا، عاد مؤخراً من القسطنطينية. وقد سلّم الوزارة باسمه واسم الكونت سان–بريست Saint-Priest مذكرة تفصيلية حول وضع

الأتراك ووضع الفرنسيين حول موانى المشرق. ويشرح فيه بأوضح الطرق الانهيار القريب للامبراطورية العثمانية، وعدم قدراتها الدفاعية، وعدم جدوى الجهود التى يمكن لفرنسا أن تقدمها لها، إن هذا البيان لافت للنظر بوضوحه ولا يمكن إغفال حقيقته. وهو ينهى تقريره هذا باقتراح غزو مصر مكتفياً بوضع الظروف العامة التى يمكنها تحديد ذلك تحت أعيُن السيد الوزير:

« وقد كلفنى سيادته بأن أقدم له ملاحظاتى حول مشروع السيد دى طوط وأن أزوده بتفاصيل عن مصر. وسوف أقوم بهذه المهمة بقدر ما تسمح به معلوماتى الضعيفة والجهل الذى أنا فيه فيما يتعلق بعلاقاتنا السياسية والموقف الخاص بمختلف القوى الأوربية التى يمكنها أن تسمح لى بذلك. وإذا ما كنت من نفس آراء السيد الكونت دى سان-بريست والسيد دى تاوط، فلى أن أفخر بذلك، إلا أنه سيكون بمثابة دافع إضافى لمناقشة آرائهما بموضوعية وأن أحتاط من تلك الرغبة التى تتملك كل شخص للدفاع عن وجهة نظره الشخصية. وسأجتهد بالقيام بما كان فى وسع كل من السيد دى سان-بريست والسيد دى طوط أن يقوما به بصورة أفضل منى وكلنا لنا نفس الهدف: حب الخير، ومجد الملك، ومجد وزرائه، ومصلحة الدولة. وسأجتهد لتدعيم أفكارى بالوقائع والمبادئ.

« إن الإقرار بمشروع بمثل هذا الإتساع، ومن قبيل غزو مصر، والمجازفة بحملة بمثل هذه الأهمية فلابد وأن تكون مثمرة، وأن تكون ممكنة، وإن أمكننى القول: أن تكون ضرورية.

« فهل غزو مصر سيكون مثمراً بالنسبة لفرنسا؟ ».

« قبل الرد على هذا السؤال، يجب أن نعرف موقع مصر، ومنتجاتها، وثرواتها الداخلية والثروات التى يمكن للتجارة أن تجلبها ».

« لابد من موازنة المزايا التى سنحصل عليها بالمصاريف التى ستؤدى إليها تكاليف غزوها والتكاليف التى ستتكبدها الحكومة للاحتفاظ بها ».

« وأخيراً يجب أن نبحث إن لم تكن هذه الحيازة الجديدة لن تضر بشعب فرنسا ».

« ولندخل فى الموضوع ».

تلك كانت مقدمة التقرير السرى الذى رفعه سان-ديديه لوزارة الحربية الفرنسية. أما البنود الثلاثة الأخيرة فهى على التوالى:

٦ - «فحص المزايا التى سنحصل عليها من غزو مصر»:

« إن كل التفاصيل التمهيدية التى تناولتها قد بدت لى ضرورية لنعرف موضع مصر، وطابع سكانها ونوعية منتجاتها. وكلها نقاط متعددة وأساسية ستنفع فى توجيهنا أثناء مناقشة المزايا التى سيمكن لفرنسا أن تحصل عليها بامتلاكها مصر ».

« إن بلداً بمثل هذا الثراء وهذه الخصوبة، رغم القهر الذى يعانى منه، يعد بمثابة منبع لموارد لا حصر لها بالنسبة لبلد متحضر ومثقف، كما يقدم له أكبر التسهيلات ليزيد من انتاجه ودخله. إن الإصلاح المتتالى لقنوات النيل القديمة التى ردمت، وإعادتها إلى ما كانت عليه، سيعود بالوفرة والرخاء على كل أنحاء مصر التى أصبحت قحطاء. كما أن هذه المملكة وحدها سوف تعود بمبالغ طائلة وتزودنا بمادة ضخمة لتجارة واسعة. فلا توجد أى مستعمرة يمكنها أن تقدم نفس المزايا فى نظر إنسان محايد. لكن فى نفس الوقت، إذا ما اعتبرنا مصر كمجموع الشعوب الأكثر بربرية والأكثر تحضراً فى نصف الكرة الأرضية الذى نحن فيه، ونظرنا إليها على أنها المستودع الأساسى والضرورى لبضائع أوربا وآسيا وأفريقيا، وإذا ما نظرنا إليها على أنها النقطة المركزية التى تتجمع فيها كل ثروات هذه الأجزاء الثلاثة من العالم، فمن الواضح أن المملكة التى ستحكم مصر وتسودها هى التى ستحكم وتسود التجارة العامة للعالم القديم.

« فمن ذا الذى يمكنه أن يقاوم مثل هذا الحماس الوطنى حيال مشروع

سيؤكد لفرنسا ثروات طائلة ويزودها بالوسائل التى تجعلها القوة الأكثر احتراماً فى أوربا؟».

«لنلقى بنظرة على الموقع الجغرافى لمصر. إنها تقع بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر عند الطرف الشرقى لأفريقيا حيث يربطها خليج السويس بآسيا. إن مختلف بلدان أفريقيا تساهم فى إثراء تجارة مصر، دون التحدث هنا عن قوافل المغرب وممالك الجزائر وتونس وطرابلس وكل ما يمكن لأثيوبيا وبلاد الحبشة أن تجلبه من ثرواتها إلى مصر. ولا يقوم الأثيوبيون أنفسهم بالتجارة، فنادراً ما يتاجر هؤلاء القوم خارج بلادهم. إنهم يبيعون بضائعهم إلي سكان النوبة، المعروفين باسم البربر، وهذه الشعوب تعبر الجبال البشعة التى تفصلهم عن مصر، ويأتون إليها بمنتجات هذه الممالك. فلا يمر عام إلا وتنطلق قافلة من سنّار إلى مصر. وإنى لواثق من أن أى دولة صناعية يمكنها أن تتضاعف أو أن ترفع ثلاثة أضعاف هذه التجارة بدراسة ذوق واحتياجات النوبيين والحبشيين والأثيوبيين، بأن تزودهم بالبضائع التى يمكن أن تكون أنسب لاحتياجاتهم.

«وهذه بلا شك إحدى المميزات التى تمثلها مصر، إلا أن كل ذلك لا يعد شيئاً عندما نفكر أن فرنسا يمكنها أن تستحوذ وحدها فقط على كل تجارة الهند باحتلالها مصر. إن وجودنا فى هذه البقعة من العالم غير مؤكد إذ أن الانجليز قد سبقونا فى كل مكان، وينعمون بهدوء بغنائمنا. وقد أصبح من المحال لفرنسا أن تسترجع السيادة على الهند، فكم من جهود يجب أن تبذل لنستعيد مؤسساتنا ولنهدم فيها قوى الانجليز؟! ورغمها فلا يمكننا التنبؤ بأى نجاح. فلنترك لمنافسينا طريق رأس الرجاء الصالح، لكن لا يجب أن نتخلى لهم عن تجارة غالية. فلنطعن تجارتهم فى الهند بالضربة القاضية دون حتى استخدام وسائل الجيوش. إن استقرارنا فى مصر سيسمح لنا بشراء كل بضائع الهند بأسعار أعلى مما يدفعه الانجليز وأن نبيعها لشعوب أوربا بأسعار أقل منهم إذا ما كانت هذه الوسيلة ضرورية فى البداية لنحصل على الأفضلية. ليفتح ميناء السويس أمام الهنود، ولنتعامل مع حكامهم، لنذهب ببواخرنا للبحث

عن بضائعهم، وعما قريب لن يستطيع الانجليز أن يقاوموا منافستنا، وعما قريب سيتخلون عن بلد لن يمكنهم منافستنا فى تجارته. والأمر فى أيدى فرنسا لتقوم بثورة لإفلاس منافسيها وتفتح لها فى نفس الوقت مصدراً لا ينضب من الثروات. إن الإنسان يذهب عادة من موانئ بروفانس إلى الاسكندرية فى خمسة عشر أو فى عشرين يوماً. والمسافة عن طريق النيل من الاسكندرية إلى القاهرة لا تستغرق فى الصيف أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، والجمال التى تنقل البضائع من القاهرة إلى السويس لا تستغرق أكثر من يومين لتصلها. وسوف نستعين بالجمال إلى أن نتمكن من إعادة فتح القناة القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر. إن الرياح الشمالية التى تسود ذلك البحر عدة أشهر فى العام ستقود بواخرنا من السويس إلى موانئ الهند فى وقت قليل. بل إنه يمكن الجزم بأن البضائع المتجهة من مرسيليا ستصل الهند فى غضون شهرين ونصف أو ثلاثة على الأكثر بعد رحيلها من فرنسا وأن العودة لن تكون أطول إذا ما تخيرنا الفصول. وبهذه الطريقة سنتجنب فقدان الرجال الرهيب الناجم عن داء الحَفَرْ والأمراض التقليدية الناجمة عن الرحلات الطويلة، والذى نعانى منه كل عام. كما سيمكننا أن نزود جزر فرنسا والبوربون بقمح مصر إذا ما كان من المناسب الاحتفاظ بهذه الجزر».

«وعادة ما يصل إلى مصر عن طريق موانئ تركيا والبلدان المسيحية ٥٠٠ باخرة كل عام. فيمكن الاحتفاظ بكل هذه التجارة لفرنسا. كما أن الفرنسيين سيحضرون إلى مصر كل بضائع أوربا وسيذهبون إلى موانئ المشرق لإحضار كل بضائع تركيا. ويمكن عمل نفس الشىء فى طريق العودة. إن راية الملك ستقوم بكل تجارة الهند ومصر وأفريقيا دون أن تخشى أية منافسة.

«وسوف يضطر ملك اليمن أن يبيع قهوة الموكا إلى الفرنسيين، والشريف فى مكة والمدينة لن يجد أمامه إلا أن يأخذ جانب القيام بتجارة بلده مع البواخر الفرنسية، التى ستكون لها السيادة المطلقة على البحر الأحمر. إن المسلمين يتجهون إلى مكة عن طريقين؛ فغالبية الأتراك والفرس يمرون عن طريق دمشق. والبربر يعبرون

مصر. ويمكننا أن نمنح رعايا مختلف القوى الأفريقية حرية الذهاب إلى هناك عن طريق مصر وستكون هذه وسيلة لنتأكد من ولائهم ومن صداقتهم، بل حتى إنه يمكننا أن نعطى حراسة لهذه القوافل ضد الأعراب لحمايتها مقابل مبلغ نظير النفقات.

«إنه لا يمكن الشك فى مزايا غزو هذا البلد، بل أقوال أكثر من ذلك، فأياً كانت نفقات وتكاليف هذه الحملة فإن محاصيل مصر وجماركها سرعان ما سوف تعوّض كل ما نكون قد أنفقناه. وسيؤدى ذلك إلى زيادة إيرادات الملك وإنقاص إيرادات منافسينا.

«ولا شك فى أن السنوات الأولى التى ستعقب الغزو لن تأتى بأرباح كبرى، ذلك بسبب مصروفات الجيش والحصون التى يجب إقامتها، والترسانات التى يجب إنشاؤها، والقنوات التى يجب تحسينها، كل ذلك سيمتص الإيرادات. لكن، إن قوة مثل فرنسا يتعين عليها أن تصوب نظراتها إلى المستقبل. نعم، إننى أجرؤ على القول إنه إذا ما تمكنّا من الاستقرار فى مصر، وإذا ما اهتمت إدارة فرنسا أن تولى هذه المستعمرة الجديدة كل الاهتمام الذى تستحقه فلن تمضى فترة عشرة أعوام دون أن ترتفع إيرادات الملك السنوية إلى أعلى بكثير عن كل ما أنفق فى الاستيلاء عليها. يجب التفكير فى طبيعة المنتجات المصرية، وفى خصوبة أرضها، وفى مختلف أفرع التجارة التى ستستقر فيها وعندئذ سيتضح أننى لم أكن أبالغ، وأنه من المحال أن نحسب كل الثروات التى ستجنيها فرنسا. لكن، قد يرى البعض أنه قد تصبح مصر مقبرة الفرنسيين الذين سيذهبون للاستقرار فيها وإنه لن نتمكن من الحصول على ثرواتها إلا على حساب شعب فرنسا؟!

«للإجابة عن مثل هذا الاعتراض، لنستمع إلى الرحالة وإلى الفرنسيين الذين سكنوا مصر. إنهم يقولون: إن الهواء أكثر نقاء من أى بلد آخر فى الدنيا – باستثناء جرانجيه Granger، كما أوضحت فى عاليه. إن نقاء هذا الجو يسرى وينتقل إلى كل الآدميين الذين يعيشون فى هذه المنطقة المحظوظة. ومن المعروف أن الجو يمكنه أن يتلوث مثلما هو واقع فى أى أجواء أخرى. فأماكن المستنقعات غير صحية، ومنها

الكثير، لكن ذلك يعود إلى خطأ السكان، إن حفر القنوات سوف يحل كل هذه المشاكل. وحيث إن الجو شديد الحرارة والشمس حامية ولا تسقط الأمطار إلا فيما ندر، فإن الطل شديد الخطورة فى مصر. إن الشمس تؤدى إلى ارتفاع كم من الأبخرة التى تسبب كثيراً من الاحتقانات فى العيون، غير أن هناك من يرجعها إلى الرمال الناعمة التى تحركها الرياح. إنه الشيء الوحيد غير المريح فى مصر. إن فرق الجيش والعاملين المدنيين والعسكريين والتجار والفنانيين يكفون تماماً. ومن السهل استدعاء كافة الكاثوليك الشرقيين الذين يئنون تحت طغيان المسلمين؛ إن فلسطين وسوريا وديار بكر مليئة بهم. فإذا ما منحناهم حياة ناعمة مطمئنة وبعض الأراضى، سيتهافتون جماعات للاستقرار بها، كما أن مصلحتهم سوف تربطهم بالفرنسيين.

« أعتقد أننى قد أجبت على كل الاعتراضات، التى يمكن أن تقال حول فائدة غزو مصر، وإننى قد أوضحت المزايا الضخمة التى سنحصل عليها.

« إلا أن هذه المزايا لا تكفى لحسم موضوع حملة من هذه النوعية، ولابد من حل نقطة أخرى لا تقل أهمية.

٧ - هذه الغزوة هل هى ممكنة؟

« يثير هذا السؤال كثيراً من الشك والارتياب، فلن أخفى لا العقبات ولا الصعاب، وسوف اقترح الوسائل التى ستبدو لى أحسنها لإنجاح هذه المهمة، وذلك بتوضيح الاجراءات المسبقة التى يجب الاهتمام بها قبل محاولة القيام بأى شيء.

« فلابد من الإقرار بأن هذه الحملة ستكلف الكثير: نفقات التسليح، ،نفقات الانتقال، وجانب تكاليف المعيشة والمؤن، أى بكلمة واحدة كل الامدادات الضرورية للغزو والاستيلاء على هذه الأرض الشديدة التكلفة. ليس من حقى أن أقرر ما إذا كان الموقف المالى يسمح بمجازفة هذه العملية حتى وإن اعتبرناها مثمرة من كافة الوجوه. وإنما سأقول فقط إن بلداً من قبيل فرنسا يمكنه، بل يجب عليه القيام بمجهود كبير حينما يتعلق الأمر بهدم تجارة منافسيها للاستيلاء عليها، والاستحواذ على ملكية بلد

سيضيف الكثير إلى مجدها وعظمتها وثرواتها. ولن أصرّ أكثر من ذلك على هذه النقطة لأعود إلى النقطة الأكبر والأهم والمتعلقة بالانجليز. هل سيمكنهم الاعتراض؟ هل سيستطيعون ذلك؟ لا شك أنهم سيبغون ذلك إذا ما عرفوا بموضوع الحملة، لكنه يمكننا أن نخدعهم بسهولة. إن الانجليز على دراية تامة بكل ما يتعلق بالتجارة لكن لا يدركون أن مصر تكفل لنا تجارة البحر الأبيض المتوسط والهند دون أن نخشى شيئاً من قوتهم البحرية. إن المكاسب التي يمكن الحصول عليها من الملاحة والتجارة في البحر الأحمر لم تغب عن شركة الهند الانجليزية. إن الفارس بروس Brusse ، عند عودته من أثيوبيا، كان عليه إجراء مباحثات مع محمد بك للسماح لبواخر بلده بإحضار بضائع الهند مباشرة إلى السويس، مع تخفيض حقوق الجمارك التي كانت تصل إلى أكثر من ١٥٪. ورغبة من البنك في زيادة دخل جماركه سمح له بما يطلب وقرر ألا يدفع الانجليز إلا ٨٪ للجمارك وخمسين «بطاق» عن كل باخرة لمحافظ السويس مقابل الرسو بالميناء. وقد تم عام ١٧٧٣ إرسال باخرتين من البنغال محملتين بالبضائع إلى كل من مصر وتركيا إلا أنهما خفقتا عند مدخل البحر الأحمر. غير أن فشل هذه المحاولة الأولى لم يثن الانجليز عن عزمهم. ففي ٢٢ ديسمبر عام ١٧٧٤ وصلت باخرتان جديدتان إلى السويس في شهر فبراير من العام التالي. وقد قام محمد بك باستقبال رئيس الحملة بترحاب كبير. وتم بيع البضائع بالجملة لتجارة البلد. وكان الانجليز قبل ذلك يضطرون إلى إرسال بضائع الهند إلى جدّة وكانوا يدفعون مبالغ طائلة لباشا جدة وشريف مكة إضافة إلى ١٥٪ التي كان الانجليز يضطرون لدفعها كقيمة لنفس البضائع في جمارك السويس. إن باشا جدة وشريف مكة يحاولان إخفاق الانجليز لإعادتهم إلى جدة. لكنهم لن يتمكنوا من ذلك إذا ما كان بكوات مصر يعرفون مصالحهم الحقيقية. وهذه الواقعة تثبت أن الانجليز قد شعروا بالفائدة التي سيجنونها بتمرير جزء من بضائع تجارتهم في الهند عن طريق مصر، وأنه إذا ما كان هذا السبب يمكنه أن يحثهم على الاعتراض على حملتنا على مصر، فمن جهة أخرى أنه سبب أدعى بالنسبة لنا لكي نستولي على بلد يبحث الانجليز عن احضار

الدوس لاستغلال المزايا التى يحتوى عليها فى حالة ما يستحيل عليهم غزو البلد لمصلحتهم هم. بل هناك الكثير من الأشخاص الذين يرون أن الانجليز يرغبون بمجازفة هذا الغزو بأنفسهم. والأمر المؤكد أنهم قد قاموا بتكليف المهندسين بعمل الخرائط والرسومات الهندسية. ولنعود إلى السؤال الذى بدأت بطرحه، أعتقد أن الانجليز لديهم مصلحة حقيقة وستكون لديهم الإرادة الحاسمة لإخفاقنا إذا أحيطوا علماً فى الوقت المناسب بخططنا.

« بل إننى أجرؤ على القول أنه فى مثل هذه الحالة سيكون عليهم أن يعلنوا الحرب ضدنا. إلا أنه من الأرجح أن تحول الظروف التى تواجههم دون ذلك. وسأقول أولاً: إنه يمكن لفرنسا أن تخفى مشروعها وسوف أوضح ذلك فى مكان آخر من هذه المذكرة. لكن سأفترض العكس، أن الانجليز وقد احيطوا علماً بأهدافنا سيبحثون عن إعاقتنا. وفى ذلك الوقت سنكون إما فى حالة سلم وإما فى حالة حرب معهم. وفى كلتا الحالتين. لا يجب أن نخشى شيئاً منهم إذا ما ساندتنا أسبانيا.

« فهل من المعقول أن يجرؤ الانجليز بمجازفة ضياع أسطول ضخم فى قاع البحر الأبيض المتوسط على احتمال أن يهزمهم الفرنسيون والأسبان أو حتى ألا يصلوا فى الوقت المناسب، لأن فرق جشينا ما أن يتم إنزالها فى مصر ليس لديهم ما يخشوه من جيش بحرى لن يستطيع البقاء طويلاً فى البحر الأبيض المتوسط.

« وقبل أن تجازف فرنسا بالحملة، عليها أن تتخذ الإجراءات لحماية حدودها ومستعمراتها وتجعلها فى مأمن من أى غزو محتمل، وأن تكون على أهبه الاستعداد لتحول كل هجماتها على مصر. إن الهدف فى غاية الأهمية فى حد ذاته. كما يتعين عليها مواصلة المباحثات الدائرة بين انجلترا والمستعمرات دون أن تخسر أياً من الطرفين. إن هذه الاحتياطات لن تكفى وحدها، ويجب أن نبدأ مسبقاً وعلى التوالى بتسرب العديد من البواخر وحدها، و يجب أن نبدأ مسبقاً وعلى التوالى بتسريب العديد من البواخر الحربية عبر طولون إلى الجنوب، وبحجج مختلفة، بحيث يكون هنالك من عشرين إلى خمس وعشرين أو ثلاثين باخرة حربية على أهبة الاستعداد

كما يجب احضار كل الأساطيل التي يمكن أن نستغني عنها في الأماكن الأخرى، والتي يمكنها أن تكون محملة عتادياً لحملة قصيرة المدى. كما يجب أن تتم عملية التموين في أكبر قدر من السرّية في المؤن والمعدات، وبزعم بعض التحركات إلى كورسيكا وسنهتم بإشاعة هذا الخبر من باب التمويه، كما نقوم بتسريب بعض فرق الجيش عن طريق بروفانس، وأن تتجمع بها بقية الفرق من مختلف الأماكن عند بدء تنفيذ العملية.

« لقد قلت: إنه يتعين علينا أن نعمل بتضافر مع الأسبان؛ وذلك ضروري لا لكي يعاونوننا على غزو مصر، ولكن ربما لمحاصرة الانجليز. وفي مثل هذه الحالة يجب على الأسبان أن يقوموا بتشوين ذخائر مهولة في كل من مدينة كادى وكارتاجينا.

« هل يمكن أن نتخيل أنه في مثل هذا الوضع سيجرؤ الانجليز على الاقتراب من البحر الأبيض المتوسط؟ نظراً لاهتمامهم وانشغالهم بقلاقل مستعمراتهم، وفي حالة إفلاسهم هذه وفي الوقت الذي يرون فيه أن أرصدتهم تتبدد، هل سيمكنهم تسليح خمسين بارجة حربية على الأقل ودون أن يكون لديهم ضمان أو حتى الآمال المنطقية للوصول إلى هدفهم؟ أين سيمكنهم الحصول على البحار اللازمين؟ إن كل شيء يعترض تنفيذ مشروعاتهم، ولن يمكن أبداً لحكومة لندن أن تجازف بذلك.

« وإذا ما كنا في حالة سلم معهم فلن يجرؤوا على خرقها. وإذا كنا في حالة حرب، سيهتمون بالدفاع عن أنفسهم، وعن مستعمراتهم بل وعن مستعمراتنا، لكن لن تكون لديهم القدرة أبداً على نقل قواتهم إلى البحر الأبيض المتوسط في الوقت المناسب لإحباط خطتنا. ولم يعد من الممكن الخطأ في التقدير، أن الانجليز في موقف حرج، ومن أينما نظرنا إلى موقفنا، فقد حان الوقت لندرك التفوق الذي يمكن لأسلحتنا أن تحققه على الإنجليز. ففي العام الماضي كان هناك أسطول وجيش أسباني يهددان البحر الأبيض المتوسط. فهل حاول الانجليز الاعتراض بالقوة؟ لقد أعلنت لهم أسبانيا أن جيوشها ذاهبة إلى أفريقيا، فيمكننا إذن أن نقوم نحن بنفس القول، وعلى الانجليز أن يكتفوا بالصمت. إن هذا الحدث لمثال كاف لطمئنتنا.

« وعلى أى حال، إذا ما كان من الضرورى أن نتذرع بسبب مع أية قوى بربرية، فمن السهل جداً اختلاق خصومة عابرة مع الوصاية على طرابلس. إنه أقرب بلد يمكنه أن يخفى تطلعاتنا. وعندما نستولى على مصر، فإننى مسئول عن إعادة حالة السلم مع طرابلس. فيبدو، بعد هذه التأملات، ومثال أسبانيا، أن تطمئن فرنسا من جانب الانجليز.

« لكن، قد يقال، كيف يمكننا دفع الأسبان إلى التورط معنا فى حملة تبدو كل مزاياها أنها ستعود على الفرنسيين؟ إن الإجابة سهلة: إذا ما اعتقدنا أن مساعدة الأسبان ضرورية ولابد منها، الأمر الذى أشك فيه، فلا يوجد إلا أن نتقاسم معهم وأن نعرض عليهم الانضمام إلى الفرنسيين فيما يتعلق بتجارة مصر، وأن يقيموا فيها منشآت تجارية أسبانية، وذلك دوناً عن تجار وملاحى القوى الأخرى. إن مثل هذه الميزة، التى تعد لها ثقلها بالنسبة لأية دولة أخرى، يجب أن تبدد أية غيوم فيما يتعلق بالأسبان. فلا يجب علينا أن نخشاهم أو نخشى منافستهم وتجارتهم. أفليس هذا الموضوع بكاف لإقناع الأسبان بأن يكونوا على أهبة الاستعداد حربياً فى كل من بلدتى كادى وقارطاجينا؟ ولن يكون أمامنا إلا أن نقترح عليهم مستعمرة فى البحر الأبيض المتوسط، وإذا ما كانت هناك سياسة حكيمة تقود حكومة مدريد، فلا يجب عليها أن تصر على مثل هذا المقابل لأن الأسبان لهم بالفعل الكثير من الممتلكات وأن شعبهم تعداده قليل. لذلك يتعين عليهم الاكتفاء باقتسام تجارة مصر والميزة العائدة عليهم مهولة عندما يرون الانجليز وهم يغوصون فى الفقر بضياع تجارة الهند ومن ثن اضطرارهم إلى التخلى عن البحر الأبيض المتوسط والمنشآت التى يمتلكونها فيها.

« أفلا يمكننا أن نؤكد للأسبان أيضاً ملكية جزيرة مينوركا ما أن تسمح لنا الظروف بمهاجمتها بنجاح؟ ومع ذلك، وإذا ما أصر الأسبان على مقابل فى البحر الأبيض المتوسط يمكننا أن نتنازل لهم عن جزيرة كورسيكا. وإذا لم ترق لهم هذه الخطة، يمكننا أن نصوب أنظارنا إلى تونس أو كريت. إن الأولى مملكة شديدة الخصوبة ولن يكون غزوها صعباً. وإذا كان الأسبان قد هاجموا تونس بدلاً من الجزائر

لكانت حملتهم أكثر نصراً وأكثر فائدة. إن الموقع الجغرافى لتونس التى يحيط بها البحر من كل جانب تقريباً، وضعف الحكومة، وثروات البلد كانت كافية بتسهيل نجاح الحملة عليها ووسائل الاحتفاظ بها. إلا أن الاستيلاء على جزيرة كريت أفضل من كل الجوانب. ذلك أن غزو مصر يتطلب – وفقاً لبعض الأشخاص – ضرورة الاستيلاء على كريت، وأنه يتعين أن تقع هذه الجزيرة فى أيدينا أو فى أيدى حلفائنا. إن الأسبان سيجدون فيها ميزة الحصول على ملكية ثرية، وسوف يجنبوننا تكاليف هذه الحملة الثانية، وما علينا إلا أن نطالبهم بشرط مؤكد أن تكون كافة موانىء كريت مفتوحة لبواخرنا التجارية أو لبوارجنا الحربية مثلما ستكون موانىء مصر مفتوحة للأسبان. والأمر لن يعنينا أن تكون ملكية هذه الجزيرة تحت السيطرة الأسبانية بدلاً عن سيطرتنا.

« ومع تبديد المصاعب من جهة الانجليز كأعداء، ومن جهة الأسبان كأصدقاء، ألن نقابل عقبات من جانب القسطنطينية؟ إن الأتراك فى حالة إذلال قصوى فلم نخشاهم: فالسيد الكونت دى سان–بريسست والسيد البارون دى طوط مقتنعان بذلك. ودون مناقشة هذه النقطة فهناك وسيلة بسيطة. فمنذ مطلع هذا القرن وباشوات مصر وبكواتها قد استدانوا مبالغ طائلة من الفرنسيين وأغلبها لم يتم تسديده. وقد تسببوا لهم فى العديد من الإهانات، من كل الأنواع، دون مراعاة الاحترام الواجب للملك أو الولاء للامتيازات الأجنبية التى يتفننون فى اختراقها يومياً. إن هذه السلفيات، وهذه الإهانات إضافة إلى الفوائد المتراكمة يمكن تقديرها حتى تصل إلى مبالغ طائلة. أعتقد شخصياً، مثل البارون دى طوط، أنها قد تصل إلى أربعين مليوناً. وأقترح أن يقوم سفير الملك فى القسطنطينية بعرض الحالة على الباب العالى وأن يطالب بالسداد وبتعويض واضح عن كل الإهانات التى تعرض لها الفرنسيون فى مصر. وسوف يكون رد الباب العالى نفس ذلك الرد الدائم. فكل ما سنحصل عليه هو بعض الاعتذارات عن عدم قدرته على إجبار المصريين على الطاعة لأن سلطته غير معترف بها فى ذلك البلد. وسيكون من العدل والإنصاف أن نعلن له

عندئذ أنه بما أن سلطته محتقرة هناك، وأنه بلا أية قوى، فإننا نتكفل بأخذ ثأرنا بأيدينا. وبعد هذه المحاولة ستكون الحملة عادلة ولها ما يبررها.

« وما إن يصبح الفرنسيون سادة مصر سيكونون أيضاً سادة الأتراك، وستضع القهوة والأرز بالضرورة كل العثمانيين تحت أمرتنا. وعلى أى حال فيمكننا أن نأتى لهم ببعض التعويضات، يمكننا أن نقدم لهم بعض العون ضد الروس إذا ما حاول هؤلاء فتح ممرات قناة البحر الأسود أو الدردنيل. وستكون بضعة بوارج حربية كافية تماماً.

« وهنا يأتى دور وضع خطة الحملة، وتحديد عدد البوارج الحربية والفرق الحربية، وتحديد نقاط أماكن الهجوم. إلا أن ذلك عمل يقع على أحد العسكريين الضالعين، الذى يجب عليه أن يذهب لمعاينة الأماكن ليمكنه إرشاد الحكومة فى الاجراءات التى يجب اتخاذها. وهذا الاحتياط لابد منه لكى لا نخفق المشروع.

« وسوف أكتفى ببعض الملاحظات العامة. أفترض وجود أساطيل فى كل من كادى وقارطاجينا. يمكننا توجيه بعض البوارج من طولون للعلميات الحربية ولحراسة القافلة. وتبقى البوارج الأخرى على أهبة الاستعداد فى طولون، لتنضم إلى الأسبان واعتراض دخول الانجليز فى البحر الأبيض، إذا ما جرأوا على المجىء لقلقلة حملتنا، وهو ما لا أظنه أبداً. وهناك وسيلة أخرى لمنع الانجليز، وهى أن نقوم بتسليح أسطول فى مدينة بريست وأن نقوم بتسريب عدة فرق على السواحل جهة الغرب حتى يحاصروا أى إنزال للانجليز. وباتخاذ هذه الحيطة يمكننا حتى الاستغناء عن مساعدة الأسبان. على أى حال فالتسليح يمكن أن يكون جاهزاً عن طريق الإعدادات التى سنقوم بها مسبقاً وسيكون الانجليز فى شك، مثل كل أوربا، فيما يتعلق بحقيقة اتجاهنا الذى يمكن التمويه عليه بإعلان عملية على بربر طرابلس. إلا أننى أفضل السفن العتادية والبوارج المسلحة بالعتاد على عدد ضخم من البواخر التجارية لأن إبحارها أسرع وأنه من الأسهل قيادة قافلتها دون خشية أن تقوم الرياح ببعثرتها.

« إن اختيار القائد شديد الأهمية، فهو وحده الذى يجب أن يحتفظ بالسر، واختيار ضابط ماهر وجثور، يمكنه الجمع بين قيادة القوات الأرضية والبحرية، هو خير شخص لهذه المهمة.

« وما أن يصل الأسطول إلى شواطىء مصر حتى يتم الشروع فى الاستيلاء على الاسكندرية والعمل على تعزيزها. إن الاستيلاء على هذا الموقع، المجرد من أية منشآت دفاعية، قد يكون أسهل مما نتصور. ففى هذه الفترة أنظر إلى الحملة على مصر وكأنها قد تمت بالفعل، شريطة ألا نتورط باستخفاف فى الأراضى وأن نتقدم خطوة بخطوة وبحرص شديد. ولن يتمكن المصريون بعد ذلك من الحصول على أية نجدة من الخارج: سينتهى بهم الأمر إلى قدرتهم الذاتية، أو بعبارة أخرى ستكون الحكومة عبارة عن مجرد الفرق العثمانية والمماليك أو العبيد، لأن الأمر لا يعنى المصريين كثيراً فى أن يعانوا من نير قوى أجنبية أو أن يظلوا خاضعين لطغيان البكوات والعثمانيين.

« وبعد الاستيلاء على الاسكندرية، فإن القاهرة والسويس يجب أن يستحوذا على اهتمام القائد. هل سيتعين عليه أن يبدأ الهجوم أرضاً، هل سينتظر فيضان النيل ليصعد هذا النهر بفرقاطات صغيرة وزوارق إنقاذ مدفعية، ومراكب شواطئية لجر المدافع؟ إن هذه نقطة لم أقررها بعد ولا يمكن البت فيها إلا بعد الحصول على معلومات من الموقع نفسه، وهو ما يجب الاهتمام به قبل محاولة المجازفة بأى شىء. إننى أعلم أن القاهرة بلا أى حماية، مثلها مثل السويس وبقية المدن المصرية. وأعتقد أنه يجب أن نقوم ببناء قلعة لحصر القاهرة وبناء واحدة أخرى فى السويس لحماية الترسانة التى سنشيدها على البحر الأحمر، أما فى مصر العليا، فسيكون الوقت سانحاً للاستيلاء عليها، وذلك بأن نقوم بعمل بعض معاقل على النيل على مسافات متباعدة.

« إن جيشنا سيكون عليه أن يخشى مصيبة واحدة، وهى الطاعون. فالقائد سيكون عليه اتخاذ كافة الاحتياطات الممكنة ليحمى فرقه. وما أن يتم استتباب إقامتنا سيمكننا أن نزيح العدوى عن مصر بسهولة وذلك بعمل محاجر صحية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وعند الحدود النوبية.

« وقد يكون نجاح هذه المهمة غير كامل إن لم تكن مدعّمة بحملة أكثر اعتباراً منها، وإن كان يبدو أنها وحدها هى التى يمكنها أن تجعل المزايا التى يتعيّن علينا الحصول عليها من غزو مصر مؤكدة. فلنلق بنظرة خاطفة على خريطة البحر الأحمر.

إنه يلامس مصر من ناحية الشمال عند السويس، وينفتح جنوباً على المحيط عبر خليج باب المندب. وهذا الممر شديد الضيق وفى منتصف المعبر توجد جزيرة مهون التى يستحسن أن نستولى عليها. إننا نجهل ما إذا كانت آهلة بالسكان، أو إن كانت ملكاً لأحد الأمراء العرب أو لملك اليمن. وسوف يمكننى عما قليل تقديم المعلومات الدقيقة فيما يتعلق بهذه المنطقة والتى بناء عليها سيكون من السهل تحديد الإجراءات الضرورية لنصبح سادة ذلك الممر وأن نتحصن فيه بحيث لا يمكن للانجليز أن يطردوننا منه، إذا ما كان الأمر فعلاً كما سمعت، إنه مفتاح البحر الأحمر والنقطة التى يجب أن تؤكد لنا سلامة تجارة الهند والبلدان الواقعة على البحر الأحمر مثل موكا وجدة والموانىء الأخرى لشبه الجزيرة العربية.

« سيكون ذلك بمثابة الحاجز من جهة الهند. (ومع ذلك أعتقد أنه يمكننا الشروع فى ذلك دون أى مخاطرة، أما جزيرة كريت فهى من جهة البحر الأبيض المتوسط، إذا ما اضطررنا إلى الاحتياج إليها، وذلك ما أشك فيه. وإذا ما نظرنا إلى هذه الجزيرة على أنها مستعمرة فهى تحوى ثروات مهولة وتجارة ضخمة. أما كموقع، فهى تحمى تجارة فرنسا مع مصر، وتسيطر خاصة على مجموعة جزر الأرخبيل. إن وضع بضعة بوارج حربية فى موانيها وفى مراقبة سواحلها ستضع الملاحة فى مأمن عن أية مهانة. إن الحملة على جزيرة كريت يمكن أن تكون تالية للحملة على مصر، إلا إذا رغب الأسبان بالقيام بذلك الغزو. إن القوى التى تستولى على ميناء « سود » سرعان ما سوف تسيطر على الجزيرة بأسرها: يبدو أنها أهم نقطة بها على ما يبدو، لكنه لا يمكننى تأكيد شيء.

« إن كل التفاصيل الخاصة بالغزوة لم أنطق بها إلا كفكرة عامة عن الحملة؛ ويمكن ألا تكون دقيقة، ولا حاسمة، ولابد من أن يقوم بمراجعتها أشخاص أكثر دراية بالموضوع وخاصة من قبيل الرجل الحربى الذى سيتم إرساله إلى الموقع، ولا يسعنى إلا أن أكرر أن ذلك بمثابة احتياط أولى ولابد منه.

« إن سهولة الاحتفاظ بالاستيلاء على مصر لا يمثل أية مشكلة. فلا يمكن مهاجمتها إلا من جهة البحر الأبيض المتوسط، وإنشاء بعض الحصون ستضعها فى

مأمن عن أية إهانة. فهى لا تتعرض لشىء من جهة النوبة؛ كما أن صحارى مملكة طرابلس البربر، تلك التى نقابلها قبل الوصول إلى جبال فلسطين، هى بمثابة حواجز تفصلها عن بقية العالم. على أى حال ما إن يصبح الفرنسيون سادة النيل سيقيمون خطاً دفاعياً.

« ويمكن أن نفترض أنه بعد بضعة أعوام، حينما يتم عمل كافة المنشآت، سيكون فيلق مكون من ثمانية أو عشرة آلاف، أكثر من كاف لحماية كل هذه المملكة ولاستتباب الأمن فيها. والحق يقال سيتعين إبدالهم كل سبعة أو ثمانية أعوام لتجنب انعكاسات المناخ إذا ثبت أنه سيؤثر عليهم بالتراخى ويجعل منهم رجالاً مخنثين وغارقين فى ملذاتهم الحسية. ومن الأرجح أن نقوم فى هذه الفترة بتكوين فرقة بوليس من مسيحى البلد وأولئك الذين سيفدون إليه للإقامة قادمين من فلسطين وسوريا. وسنستخدمهم بجدارة فى البوليس، بل وحتى ضد العرب، إذا ما فكروا فى الثورة فى مصر ضد الفرنسيين. ولا يحتاج الأمر إلا إلى بضعة قوانين واضحة ومتناسبة مع عادات وتقاليد سكان مصر، وحكومة عادلة، وبضعة رتب ودرجات وبضعة مكافآت لأهم أعيان البلد، وتأكيد سلامة ملكياتهم وأموالهم، لكى نضمن ولاء هذه الشعوب لفرنسا – خاصة أن هذه الشعوب ستتنفس الصعداء بعد أن عانت عدة قرون تحت طغيان بشع. وستكون الثروات التى ستجنيها فرنسا من مصر هى المكافاة الكبرى للخير الذى تكون قد قامت به للسكان بإشراكهم فى الأمة وبنزع القيود الحديدية التى فرضها عليهم الطغاة على التوالى.

« إن الإنسانية ستبدأ بالمطالبة بحقوقها فى بلد لم يتم الاعتراف بها فيه أبداً لفترة طويلة، وسنرى أخيراً ازدهار مملكة خصبة، تعد أساساً مورداً مؤكداً ومضموناً لخزائن فرنسا العامة ومجالاً لحسرة بقية الدول الأخرى...

٨ – غزو مصر هل هو ضرورى أو هل سيصبح ضرورياً؟

« قد يكون تناول هذا السؤال شيئاً إضافياً لا معنى له، إذا ما كانت مزايا غزو مصر بهذا القدر كما يبدو لى، وإذا ما اعترف الشخص المسئول عن الذهاب إلى الأماكن نفسها وفحصها وأقر أنى لم أكن مبالغاً أو متوهماً حول احتمالات هذه الحملة وإمكانياتها.

« ومن الإنصاف أن نقول أيضاً أن الحكومة سيكون لديها أكثر من سبب لتتخذ قرارها إذا ما وضحّنا لها أهمية وضرورة هذه الحملة. وهذا السبب أو التذرع موجود إذا ما كانت التجارة الفرنسية مهددة فى بلاد المشرق بانهيار قريب، أو إذا ما قاربنا اللحظة التى نرى فيها هذا الفرع من ثرواتنا ينتقل إلى أيدى أجنبية ومنافسة، وإنه لم يعد من الممكن لنا أن نبقى فى بلدان المشرق، وإذا كان العلاج الوحيد لمثل هذا الداء الفاحش ليس إلا غزو بلد سيؤدى إلى إبادة مشاريع أعدائنا ويزيد من تجارتنا فى البحر الأبيض المتوسط بأن يعطينا السيادة التى لن يتمكن أحد من أن ينزعها عنا بعد ذلك، وبأن يضع بين تجارة آسيا وأفريقيا وجزء كبير من تجارة أوربا. عندئذ يتم الاقتناع بأن مصر هى البلد الوحيد فى البحر الأبيض المتوسط الذى يقدم كل هذه المزايا.

« وإذا ما صدقنا الآراء التى وصلتنا من فيينا بل ومن القسطنطينية، فإن الروس يهتمون حالياً بتنفيذ مشروع لن يسمح لنا بأن نظل مجرد مشاهدين للأحداث. فأياً كان موقف ميزانياتنا، وأيا كانت أسباب الحكومة لنتمسك بالسلم، واستبعاد كل ما يمكنه إشعال الحرب، فمن المحال أن تنظر فرنسا بعدم اكتراث إلى إنهيار تجارتها وملاحتها. إن الحكمة تقتضى البحث بتوخى الحرص والمهارة عن استبعاد هذه المحنة. لكن عند وصولها فإن السياسة الحكيمة تقتضى جهوداً جمة لمناقشة وضع تلك الثروات التى يحاولون انتزاعها منا. إننا نقترب من لحظة حاسمة إذا ما بدأ الروس مشروع مهاجمة القسطنطينية عن طريق البحر الأسود والدردنيل، وهدم الامبراطورية العثمانية. وهناك ادعاء بأنهم يعدون لإنزال ضخم فى الغابات المجاورة للبوريستين والدون وأن كل قطع الخشب المرقمة قد تم نقلها من آزوف ومن كيلبورن إلى كرسن وجنيكاله وتم وضعها عند مضيق بحر زباخ، كما أنهم يرسلون أيضاً مختلف أنواع عتاد الحرب والمؤن الغذائية. إن الروس يستخدمون النقود التى يضطر الأتراك إلى دفعها لهم بموجب الاتفاق الأخير، لبناء هذا الأسطول الذى سيكون من عشرين بارجة حربية يجب الانتهاء من بنائها فى أقل من عامين. كما يقومون فى نفس الوقت بإعداد أسطول مهول فى كرونستاد والذى سيقوم جزء منه بعمل ثورات هذا العام فى بحر البلطيق. وسوف يكون ذريعة للتمويه على حقيقة أهدافه عندما يحين الوقت.

كما أنهم يرسلون فرقاطات إلى الأرخبيل. كما وصلت لدينا الأنباء بأن كثيراً منهم قد وصل إلى موانىء انجلترا. والسبب الذى يتذرعون به لذلك التسليح الصغير خاص بالحماية التى تريد الامبراطورة أن تضفيها على التجارة الخاصة برعاياها: إلا أن هدفها الحقيقى هو زيادة وتدعيم وتمويل فريق الروس بالسلاح – ذلك الفريق المكون من كل الذين يدينون بالديانة اليونانية ذلك أن روسيا يجب أن تعتمد أساساً على كل اليونان، والمور، ومقدونيا، والأبير وجزر الأرخبيل وأماكن عديدة من الأناضول. إن مدينة ليفورن، حيث تقوم روسيا أيام السلم بمساندة قائد روسى، هى موقع لقاء هذا الأسطول وستكون مستودع كافة الذخائر، والنقطة التى ستنطلق منها كافة الأوامر التى سترغب الامبراطورة فى إصدارها إلى المشرق. ويتعيّن على هذا الأسطول أن يعد كل العمليات ووسائل تسليح اليونانيين؛ كما أن سوء التفاهم وأخطاء الحرب الأخيرة سوف ترشد الروس إلى الإجراءات التى يجب اتخاذها. إن الاثنتى عشرة بارجة الموجودة فى البحر الأسود يجب أن يتم تجهيزها وتموينها وإبحارها فى الفترة المحددة من حكومة سان–بطرسبرج. وسوف يرافقون بحمايتهم الجيش الأرضى المقيم فى بولندا والذى يتم تدعيمه يومياً بحجة استتباب النظام ! إن كل هذه القوى ستنطلق دفعة واحدة وتتجه إلى القسطنطينية للاستيلاء عليها وطرد الأتراك إلى آسيا.

« تلك هى الآراء التى وصلت الوزارة. ويضيفون إليها أن مشروع الامبراطورة يرمى إلى أن نقيم فى القسطنطينية مقر إقامة الحكام الروس وتجديد الامبراطورية اليونانية التى ستدمج فيها امبراطورية الروس. الأمر لا يعنينا عما إذا كان هدف الامبراطورة هو ذلك أو أنها ترمى إلى إرسال نائب الملك؛ إلا أن كل ما يعنينا هو الحيلولة دون تنفيذ هذا المشروع أو أى مشروع مماثل، وإلا فسيكون على فرنسا أن تتخلى بالتدريج عن كل تجارة البحر الأبيض المتوسط.

« ولا يجب التشكك فى احتمال أن تتم المشاريع الروسية بتضافر مع الانجليز، الذين قد تمنحهم روسيا حق استقرار ما فى الشرق؛ كما قد تمنح الإيطاليين، الذين سينضمون إلى روسيا بحثاً عن استعادة جزء من ممتلكاتهم القديمة، بل وربما تتحالف أيضاً مع الامبراطور. إن اتفاقية تقسيم بولندا يمكنها أن توحى بفكرة اتحادات أكثر

فائدة وسهلة المنال سواء كانت تطلعات روسيا الحالية قد تنجح بفضل آزوف Azof ، وكيرش Kerche ، وجنيكال Jennicale، أم لن يمكنها تحقيقها. والشيء المؤكد هو أن نقول إن كل الجهود التى تقوم بها لكى يصبح لديها قوات فى البحر الأسود إنما لتهدد القسطنطينية بصورة قريبة أو بعيدة، وبالتالى فهى يجب أن تحسم موقفنا بغزو مصر. وإذا ما كان هناك ما يحول دون تبنى هذا المشروع، فلا توجد سوى وسيلة واحدة، هى مساندة السلطان، رغم أنفه، وإرسال بوارج لحماية ممر البحر الأسود، وأن نقيم سريات مدفعية بواسطة مهندسين مهرة، وأن نساندهم بفيلق من الفرق الفرنسية كما نقوم بتسليح أسطول ضخم فى مدينة طولون ليهاجم ويهزم أسطول الروس عندما يحاول دخول القسطنطينية عن طريق البحر الأسود أو الدردنيل. إن الشكاوى التى عانينا منها فى الحرب الأخيرة والتى لم يتم تعويضها بعد، هى أسباب كافية لنعلن الحرب ضدهم عندما يحين الوقت. ومن المعلوم أن مثل هذا المشروع سيكون باهظ التكاليف، ولابد له من النجاح، لكن ما هى النتيجة؟ أن نجد أنفسنا حيث كنا منذ بضعة أعوام – وأن نكون قد تكبدنا مصاريف ضخمة دون الحصول على أية ملكية بوضع اليد.

« وإذا ما أردنا أن نأمل بعمل نفس الشيء فقد يكون علينا أن نتكبد تضحيات كبرى: ولا يمكننا أن نأملها. إن الفوضى السائدة فى كل مكان فى تركيا، ومنهم الباشوات الذين لا يهتمون إلا بالإثراء دون خشية الباب العالى، والإهانات التى إذا ما زادت على هذا الحد ستضطرنا إلى ترك كثير من منشآتنا فى تركيا دون أن نحصل على أى تعويض نظراً لضعف السلطان وضعف ديوانه، أى إن كل شيء يعلن لنا أننا لا يجب أن ننتظر أية تعويضات أو أية حماية إلا من قواتنا وشجاعتنا.

« وهناك سبب آخر قوى قد يجعل غزو مصر ضرورة لابد منها. فأياً كان أمر حب الانجليز مع مستعمراتهم، فيمكننا أن نتنبأ دون خشية أى خطأ فى التقدير، إنهم حيال لحظة انفصال تام عنها أو إن ذلك لن يتأخر حدوثه إلا بضعة أعوام.

« فالسياسة الحكمية تقتضى البحث عن كيفية الاحتفاظ بمستعمراتنا فى تبعية

الدولة، وإن كان هذا الأمر يمكن إرجاؤه حالياً. إلا أن اليوم قد يأتى حيث تدخل فيه فى اتحاد المستعمرات الانجليزية. وإذا ما حاولت فرنسا الاعتراض عندئذ: سوف تُبعد عنها وإلى الأبد مستعمراتها الخاصة والمستعمرات الانجليزية-الأمريكية. وقد تدفعها مصلحتها إلى التخلى عنها وتحريرها لكى تستفيد من هذا التصرف الإجبارى لعقد اتفاقيات تجارية مثمرة على أن نستغل بمهارة الكراهية التى ستظل طويلاً بعد انفصال انجلترا عن المستعمرات. إن المزايا التى سنحصل عليها قد تعوضنا خسائر فقدان مستعمراتنا إذا ما تم ذلك بأياد نشطة. لكن، كم ستكون نصرة فرنسا أنها تكون قد تنبأت فى الوقت المناسب بهذا التغيير وأن تكون قد رتبت كل شىء لتضع تحت إمرتها وتحت أعينها مستعمرة ثرية سوف تزودها بالسكر والنيلة وتقريباً بكل المنتجات الأمريكية.

«إلا أنه قد لا يتم إقرار مشروع الاستيلاء على مصر فى الظروف الحالية، ومن المحتمل أن نتولاه ذات يوم. ومن هنا أعتقد أنه يتعين علىّ أن أقترح على سيدى أن يختار السيد البارون دى طوط لتفقد موانىء المشرق التى أوضحنا أهميتها تحت أعينّ الملك. ذلك لأن قدراته ورتبته تجعلاه خير من يقوم بهذه المهمة. ويجب إضافة بند سرى إلى التعليمات الخاصة بالسيد دى طوط لنعهد إليه ببحث إمكانيات غزو مصر، وأفضل الأماكن بالإنزال، وما هى قوات البلد، وما هى القوات التى يجب على فرنسا أن تستخدمها فى هذه الحملة، كما سنطلب منه عمل خرائط المدن الساحلية وأن يعاين أماكن الهجوم والدفاع، أى فى كلمة واحدة الأوامر التى سيكون من الضرورى إصدارها لغزو مصر والاحتفاظ بها وحكمها. إن السيد دى طوط يتمتع إضافة إلى معلوماته عن التجارة بقدرات مهندس بحرى ومدنى ورجل مدفعية، كما أنه يجيد لغة البلد، وهو بمفرده يمكنه إنجاح هذه المهمة الدقيقة بمهارة. ويمكنه أن يبدأ مهمته بمصر، ثم يعود إلى فرنسا ليحيط المسئولين علماً بعملياته ويقوم بتسليم الخرائط والمشاريع، التى سنستعين بها إذا ما اضطرت الظروف إلى ذلك. وأن نجعله يواصل مهمته فى بقية موانىء المشرق الأخرى إذ من الأفضل ألا نجازف أبداً.

« ومن باب الحرص، علينا أن نبدأ من الآن بإعداد المواد اللازمة التى سنستخدمها فيما بعد حتى وإن كانت حالياً غير ذات فائدة. فمن الميزات الكبرى أن نكون على أهبة الاستعداد لأية ظروف وأحداث.

« يجب أن أتوقف عن الكتابة فالمذكرة أصبحت شديدة الطول. وأشعر أننى تركت العنان لحماسي، الذى لابد من وضع حدود له. إلا أن ذلك سيكون تبريرى لدى الوزراء الذين يقدرون أسبابى ويعذرون ضعف ريشتى غير المتمرسة على تناول مثل هذه الموضوعات الهامة.

« لقد قمت بعرض أفكارى ورأيى، وإذا ما استطاعت أن تحوز قبول الوزارة سأكون شديد السعادة. وإذا ما كنت قد أخطأت وأسأت الفهم والتقدير وأفرطت، فأرجو أن يتم إرجاع ذلك العمل الذى أتممته على عجالة على أنه دليل على حبى للخير ورغبتى فى أن أكون مفيداً.

توقيع: سان-ديدييه

وما أن تقدم سان – ديدييه بذلك التقرير حتى تم تحديد سفر البارون دى طوط إلى مصر لاستطلاع أرضها وجمع كل البيانات التى لا يمكن الحصول عليها إلا من الموقع نفسه ووصل البارون دى طوط إلى الاسكندرية فى شهر يوليو ١٧٧٧ فى تلك المهمة السرية ولم يكن ملماً بكل تفاصيلها... وفور وصوله تلقى خطاباً من القنصل العام لفرنسا مرسل من قصر فرساى، مرفق معه تلك الوثيقة التى كتبها سان ديدييه استكمالاً لتقريره وضمنها كل الأسئلة التى قال عنها فى تقريره السرى السابق، إنها بحاجة إلى من يدرسها على الواقع ويجيب عليها بدقة حتى يمكن البت فى التفاصيل التنفيذية للحملة على مصر...

وتتضمن هذه الوثيقة ثلاثين سؤالاً هى:

١ – دراسة إذا ما كانت أفضل منطقة للإنزال بين دمياط والاسكندرية فعلى

ما يبدو أنها تقع جهة الاسكندرية، أى بينها وبين أبى قير، فيجب الحصول على معلومات أكيدة حول كل هذه المنطقة من الساحل، ودراسة المسافات التى يمكن للبواخر أن تقترب منها، وما هى التسهيلات المتاحة لرسو قوارب الإنقاذ وإلى أى درجة يسيطر الشاطىء على البحر.

٢ – معرفة إذا ما كان هذا الشاطىء مفتوحاً ومتساوياً، أو إن كانت به أماكن آمنة قد تساعد الذين سيحاولون الدفاع عنه من الوديان أو التلال والغابات والسياج أو المنازل. ذلك أنه من المحتمل أن ينقلب الجو عند الوصول إلى الشاطىء ويحول دون عملية الإنزال ويعطى الوقت للأعداء أن يتجمعوا بين الاسكندرية وأبى قير ويعوقون إنزال قواتنا.

٣ – القيام بعمل خريطة للاسكندرية وشوارعها وأسوارها وطبيعة الأرض المحيطة بها، هل هى مستوية، جبلية، مكشوفة أو محمية، خصبة أم غير منزرعة.

٤ – معرفة إلى أى مدى يمكن السيطرة عليها سواء عن طريق البر من جهة الشرق، أم عن طريق لسان الأرض الممتد بين البحر وبحيرة سبكة Sebaca ، ومعرفة طبيعة أرض هذا اللسان.

٥ – معرفة إلى أى رقم تقريبى يصل تعداد سكان الاسكندرية، وعدد السكان الذين يمكن أن يتحمسوا للمشروع أو يعترضوا عليه، ونوعية وعدد الفرق التى يمكن أن توجد لحظة الإنزال، وكذلك المدفعية والأسلحة والذخيرة التى قد توجد بها.

٦ – معرفة المحلات والأسلحة وكافة أنواع الموارد التى يمكن أن نجدها كالقمح، والأرز، والأعلاف، والتبن، واللحوم، والأخشاب والنقود.

٧ – دراسة طبيعة الأرض والمكان الذى يمكننا أن نقوم بتدريباتنا عليه وأن نتطور ونعسكر فيه بعد الإنزال، بين قناة الاسكندرية ولسان بحيرة إدكو. وما هى الموارد التى يمكن أن نجدها لنتحصّن مباشرة ضد الجنوب، عن طريق الغابات والسياج والمنازل والقنوات، أو إن كان علينا أن نعتمد على أنفسنا فحسب.

٨ – معرفة إن كان من الممكن الحصول على مياه صالحة فى الموقع وإن كان يمكن الحصول على أعلاف وأخشاب وتبن.

٩ – معرفة إذا ما كانت الأرض صلبة، صالحة للمعسكرات وفى مأمن عن فيضانات النيل.

١٠ – ما هو زمن وفترات فيضانات هذا النهر، وعلى أية أماكن تفيض مياهه فى مصر السفلى، وما هى الأماكن التى تظل مكشوفة، وما هى التحركات التى تفرضها هذه الفيضانات على السكان، وما هى التغييرات التى تطرأ على المواصلات، وما هى مزايا أو عدم مزايا كل ذلك وانعكاسه على عملية الغزو سلباً أو إيجاباً.

١١ – دراسة قناة الاسكندرية من حيث عرضها وعمق المياه بها ونوعية الشطآن، وإن كانت صالحة للملاحة فى كل وقت، وإن كان يمكن عبوره فى مكان ما، وأين تقع هذه المعابر وأخيراً التغييرات التى تطرأ على مياهه؟

١٢ – ما هو ارتفاع منسوب الأرض التى تمر بها هذه القناة بين بحيرة إدكو وقناة دمنهور – الوحوش وما هى طبيعتها؟

١٣ – ما هى مختلف الطرق التى تصل أرضاً بين الاسكندرية والقاهرة، وما هى درجة متانتها، وكيف يتم عبور القنوات أو الترع والأنهار، وما هى نوعية الكبارى وطريقة بنائها، هل هى متينة، وما عرض أماكن المرور عليها، وما هو أقصر طريق للقاهرة، وأفضلها بعيداً عن الفيضانات؟

١٤ – هل يوجد طريق ممهد أو ميسر لمصر السفلى، وما هى الاتجاهات التى يجب سلوكها والأماكن التى يمكن المرور منها للذهاب إلى رشيد، ودمياط، والتينة، وبلبيس، والقاهرة وإلى الفيوم. وكيف يمكن عبور القنوات أو الأنهار، وهل يمكن للعربات أن تتبع الطريق وما هى الفترات التى لا تكون فيها صالحة للاستخدام؟

١٥ – ما هو ارتفاع وطبيعة سلسلة الجبال أو المرتفعات التى تحد مصر السفلى من جهة الغرب، من البحر الأبيض المتوسط إلى ما بعد القاهرة؟

١٦ – القيام بعمل الخريطة وجمع كافة المعلومات المطلوبة للاسكندرية لكل من القاهرة والسويس والتينة ودمياط ورشيد، وكذلك عمل الملاحظات الخاصة بطبيعة الطرق الواصلة بين كل مدينة من هذه المدن للانتقال منها إلى المدن الأخرى.

١٧ – ما هو عرض وعمق النيل فى القاهرة عندما يصل إلى أقصى ارتفاع وإلى أقصى انخفاض؟

ومعرفة ما إذا كانت هناك كبارٍ على النيل فى القاهرة وقبل أو بعد هذه المدينة، وكذلك جمع نفس المعلومات فيما يتعلق بكل فرع من فرعى النيل المكونان للدلتا.

١٨ – معرفة ما إذا كانت مختلف القنوات التى تمر بمصر السفلى ما زالت قائمة وإن كان هناك غيرها؛ وفى أى حالة هى وما هى إمكانية إعادة اصلاح هذه القنوات وما هى الطرق الصالحة لذلك وكيفية تنفيذها، وإن كان الأمر سهلاً أم صعباً، يتطلب زمناً طويلاً أم قصيراً، وإن كانت هناك كبارٍ على مختلف هذه القنوات، وما هى نوعيتها وما هى مقاسات عرضها بصفة عامة؟

١٩ – معرفة إذا ما كان توحُّل هذه القنوات والمياه الراكدة هى التى تولد الطاعون فى مصر أم إنه يصيبها عن طريق العدوى، وإن كان هذا المرض يظل طويلاً وما هى الفترة التى عادة يظهر فيها، وإن كانت هناك وسيلة لحماية مصر من هذا الوباء، وإن كانت مداواة هذه القنوات لا تؤدى – على العكس – إلى إيجاد الطاعون أو المساعدة على انتشاره، وما هى الطرق التى يمكن استخدامها لضمان سلامة الجيش الذى سيتم إنزاله لغزو هذا البلد؟

٢٠ – معرفة إذا ما كانت كل أرض الدلتا شديدة الخصوبة، وإن كان بها أخشاب مزروعة أو على هيئة غابات، وما نوعها؟ وهل تغرق الدلتا بأسرها أثناء الفيضانات الكبرى أم أن هناك أماكن تظل جافة، وما هو ارتفاع هذه الأماكن؟

٢١ – الحصول على معلومات حول طبيعة أرض بر السحيات والوادى أو الخور، والمعروف باسم بحر بلامه، أو إن كان هناك نهر بلا مياه؟ هل هو ضيق الاتساع، عميق أو من الصعب عبوره، وإن كان القاع والشطآن غير منزرعة أم بها أشجار؟

٢٢ – ما هى طبيعة وادى التيه من النيل إلى البحر الأحمر وإن كانت الارتفاعات التى تحد جانبه الشمالى تنحدر جهة الوادى، أو إنها مدرجة، أو حادة أو قليلة الإنحدار، وهل هى مكشوفة أم بها أشجار؟

٢٣ – هل مدينة السويس مكشوفة أم لا؟ وهل من الممكن عزلها والتحصين بها هى وميناؤها؟ وما هى مساحة ذلك الميناء وما هى أكبر أنواع البواخر التى يمكن أن تدخله، وما هى تسهيلات الدخول والخروج والرسو به، وما هى الضمانات من سوء الأحوال الجوية.

٢٤ – نفس الملاحظات حول مدن وموانىء الاسكندرية، ورشيد، ودمياط، وما هى سهولة أو صعوبة تحصين القاهرة.

٢٥ – ما هى طبيعة البلد فى الاتجاه من السويس إلى التينة وعلى مدى سبعة أو ثمانية أميال عن يمين وعن يسار هذا الاتجاه؟ هل هى أرض مسطحة، جبلية، مكشوفة أم بها أشجار، مزروعة أو بور، آهلة بالسكان أم صحراء، وما هى المسافة الحقيقية بين السويس والتينة؟

٢٦ – وما هى المسافة من السويس إلى الطرف الجنوبى لبحيرة شيب؟ وما هى أثار أو بقايا القناة الموصلة من النيل إلى البحر الأحمر؟ وهل هذه القناة قد تم استكمال حفرها فعلاً أم لا، وهل هى صالحة للملاحة؟ وهل العمل المطلوب لإعادة إصلاحها مهول؟ وما هى طبيعة الأرض التى يجب فحتها؟

٢٧ – ما هى المسافة الحقيقية للحبزة، على بحيرة شيبا عند سثرون، على بحيرة تنيس، وما هى طبيعة هذا البلد بين هاتين النقطتين؟ وهل هو خارج نطاق الفيضانات؟

٢٨ – هل اليهود الذين يقطنون مصر السفلى يمكن استمالتهم لصالحنا بسهولة؟ هل هم تجار، نشطون ويصلحون للمهام الحيوية حينما تكون ذات نفع مادى مثل يهود أوربا؟

٢٩ – ما هو تعداد فرق المشاة والفرسان الأتراك التى سيكون علينا محاربتها، وما هو عدد المماليك بالتقريب؟

٣٠ – هل يمكن الحصول على خيول لعمل فرق خيالة وفرق خفيفة عن طريق اليهود أو عن أى طريق آخر حتى لا نضطر إلى شحنها من أوربا؟

« تلك هى المعلومات التى من المفيد الحصول عليها حتى نتمكن من وضع مشروع الترتيبات، والعمليات، والاحتياطات الضرورية للغزو وللحفاظ على بلد يمثل لفرنسا أضمن وسيلة لعرقلة النظرات الطامعة لكل من روسيا وانجلترا، ولكى تصبح سيدة التجارة مع الهند دون أن تخسر شيئاً، وأن تضع عقبات لمخططات الإمبراطور وأطماعه فى إيطاليا، وأن تؤكد ملكية إمبراطورية البحر الأبيض المتوسط لآل بوربون، وأن تخضع عما قريب نفوذ ماهون وجبل طارق تحت سلطتها، وتمتلك لنفسها أخيراً مستعمرة للسكر والنيلة، مستقلة عن أمريكا وعن المصير الذى يمكن للمستقبل أن يعده لها.

« الغزوة المعنية لا تمثل مصاعب جمة، إذا لم يكن علينا إلا أن نهزم المماليك والأتراك الموجودين فى مصر. إلا أن الأمر الذى يجب أن نهتم به هو كيفية الاحتفاظ بهذا الغزو قبل القيام به، حتى لا نتعرض لخطر ضياع ثمار العناية به وكل ما نكون قد تكبدناه من تكاليف، ولا نرى ما يمكنه أن يقلقنا إلا من جهة مضيق السويس مفترضين أولاً أنه بعد الغزو سوف نهتم بفصل جزيرة ميهون وميناء السويس وبذلك نصبح مطلق سادة البحر الأحمر.

« أما فيما يتعلق بالمضيق، فإن أفضل وسيلة لمواجهة أى تدخل مسلح من الجيش التركى أو العربى فهى الاكتفاء بأن نقوم بحفر قناه بذكاء وبصورة صالحة للتجارة تسد المضيق، وأن تكون صالحة باستمرار لاستيعاب المراكب المسلحة لكل من سلاح الفرسان وسلاح المدفعية، من أجل حمايتها، على أن نزود الشاطىء الخارجى ببضعة قلاع على جانبه. كما يمكننا إضافة العديد من الوسائل الأخرى للدفاع إلى ما قلناه للتو، وأن نعدّ عند الضرورة جبهات دفاعية كخط ثان وثالث مع مراعاة الاهتمام بالتزود بكل شىء كالمواصلات والمنافذ والطرق والكبارى حتى يمكن أن نتنقل بسرعة حيثما تستدعى الضرورة ذلك ».

وما أن انتهى البارون دى طوط من القيام بمهمته، كتب التقرير الذى نورد منه جزءاً فى الصفحات التالية.

* * *